وَلذلك نجد - فى البلاد التى فتحها الإسلام - أناساً بَقَوْا على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أى بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التى تحمى حق الإنسان فى اختيار عقيدته.

يقول الله جَلَّ علاه :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [الممتحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصْلحة ؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه فى الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾

(١) حرث الأرض، يحرثها حرثاً: أثارها وهيأها للزرع، أو ألقى فيها الحب للزرع. وحرث الأرض: زرعها. قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] . ويطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥) ﴾ [البقرة] أى: يهلك المزروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزرع فهن يلدن لكم الذرية. ومن المجاز قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. (٢٠) ﴾ [الشورى] أى: فى ثواب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [القلم] أى: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة. [القاموس القويم : مادة (حرث)].

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - فى هذا الكون كل مقومات الحياة ؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة فى الأرض ؛ ولم تتأبَّ[1] تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق - سبحانه - هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو - سبحانه - لن يضن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذى كفله الله - سبحانه - لكل البشر: مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج الإيمانى: «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة[2].

إذن: فقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدى مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام أراده الله - سبحانه وتعالى[3] - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أى من الكائنات الأخرى المسخَّرة عن إرادته.

---

(١) أبى إباءً وإباءةً، وتأبَّى عليه: استعصى. وأبَى الشىء: كرهه ولم يَرْضه. وفى التنزيل العزيز: ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره .. (٣٢) ﴾ [التوبة] . وفى المثل: «رضى الخصمان وأبى القاضى» يضرب لمن يطالب بحق نزل أصحابه عنه. [المعجم الوسيط : مادة (أبى)] بتصرف.

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢) ﴾ [فصلت] .

(٣) يقول تعالى: ﴿ .. ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) ﴾ [النحل]. ويقول: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. (٤٨) ﴾ [المائدة]. ويقول أيضا: ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته .. (٨) ﴾ [الشورى].

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة فى تسخير أجناس لمراده ؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه - القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

أما الذى يثبت له المحبوبية فهو أن يخلق خَلْقاً ؛ ويعطيهم فى تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كلَّ واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبية الله - تعالى.

وهكذا نعلم أن الكون المسخَّر المقهور قد كشف لنا سيَّال[1] القدرة، والجنس الذى وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبية.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..(٢٩)﴾ [الكهف]

ولكن أيُترك الإنسان حتى يأتى له الغرور فى أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا .. فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن فى طيِّك قهراً[2] ، وما دام فى طيك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهَّم أنك مختار فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك[3] فى القهريات التى تحفظ لك

---

(١) سال يسيل سيلاً، وسيلاناً، ومسيلاً، ومسالاً، فهو سائل، وسيَّال: جرى وطغى. ويقال: سالت الأرض ونحوها، وسالت بما فيها. وسالت عليه الخيل وغيرها: جرت من كل وجه وتدفقت. وسال بهم السيل، وجاش بنا البحر: وقعوا فى أمر شديد، ووقعنا نحن فى أشد منه. وسالت الغرَّة: استطالت وعرضت فى الجبهة وقصبة الأنف.

وسيَّال القدرة الإلهية: ظهور آثارها فى جميع المخلوقات، وانتشارها وشمولها لكل شىء فى الكون، ما علمنا منه وما لم نعلم. [المعجم الوسيط : مادة (سيل)] بتصرف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع البديل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله ، إذن : للاختيار حدود مقرونة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية.

(٣) الزمام: الخيط الذى يشد فى البُرَة أو فى الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود. ويقال: «هو زمام قومه»: قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم. وهو زمام الأمر: ملاكه. وألقى فى يده زمام أمره: فوَّضه إليه. ويملك الله زمامك: أى: يملك أمورك كلها. [المعجم الوسيط : مادة (زمم)] بتصرف.

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه- ميَّزك بالعقل.

وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ، فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»[1] وتعنى : «ربط» ؛ فلا تجمح[2] بعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك. وتذكر دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفى زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه.

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ، أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع.

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عَصَتْه ، وهذا دليل على أنها أمور موهوبة من الله ، وإنْ شاء أخذها، فهو - سبحانه - يأخذها ليؤدِّب صاحبها.

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقُل لنفسه: إياك أن تَغْترَّ بأن الله

---

(١) عَقَل يعقلُ عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقلَ البعير: ضمَّ رُسْغ يده إلى عَضُده وربطهما معاً بالعقال؛ ليبقى باركاً. والعقل: ما يكون به التفكير وتصوُّر الأشياء على حقيقتها، كقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ .. ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة] أى: ادركوه على حقيقته وعلموه علماً ثابتاً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] أى: لو كنا ندرك الأمر على حقيقته. وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم، وحث على استعمال العقل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة] .[القاموس القويم : مادة (عقل)] بتصرف.

(٢) جمح: أسرع. والجموح: الرجل يركب هواه فلا يمكن ردُّه. [مختار القاموس - مادة جمح].

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكّر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقَّى التكليف من الله بـ «افعل»[1]، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا»: أنك صالحٌ ألاّ تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا»: أنك صالحٌ أنْ تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْر وتسخير، فتأدَّبْ في منطقة الاختيار، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ[2] ⑥﴾ [العاديات]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية فيَّ مقهورة، ومادامت الجمادية فيَّ مقهورة؛ فَلأكُنْ مؤدباً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إنْ أردتَ أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يَرِدْ فيه تكليف بـ «افعل» و«لا تفعل» لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إنْ جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك.

---

(١) وكلمة افعل ولاتفعل تدور حول مطلوبات المنهج أمراً ونهياً، فالفرض والواجب والسنة والمستحب مأمور بهم. والحرام والمكروه منهيٌّ عنهما، وللأمر عطاؤه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ③١﴾ [فصلت] وللنهي عقابه أو المغفرة من الله.

(٢) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها، فهو كاند، وصيغة المبالغة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥﴾ [العاديات] أي : كَفُور شديد الجحود . [القاموس القويم: مادة (كند)].

فســاعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكّى عن مــالك، فلابد لك من أن تقدِّر المقابل، لأنك إن افتقرتَ واحتجْتَ ؛ سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبِّى احتياجاتك، فمن «افعل» التى تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتى الثـمرة التى تسدُّ عـجزَ أى ضـعـف فى المجـتـمع الإيمانى بالتـراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقـول لك التكليف: لا تعتـد على حُرمـات الغير، فـهو يقـيِّد حريـتك فى ظاهر الأمر ، لكنه يحـمى حُرمـاتك من أن يعتـدى عليـها الغير ، وحين تتعقل أوامر التكليف كلهـا ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقـول الـحق - سـبـحـانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (١١٨) ﴾ [هود]

و «لو » تفيد الامتناع[1] . أى : أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

---

(١) لو : حرف شـرط غير جـازم، ومعناه: امتناع الشـرط لامتناع الجواب. قـال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة]. ويقترن جوابها باللام للتـوكيد ، وقد لا يقترن باللام . كقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة] ويقل اقتـران جوابها باللام إذا كان منفيـاً كقـوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .. (٢٧) ﴾ [لقمـان] ثم قال: ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ، وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ .. (٣١) ﴾ [الرعد] الجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن العظيم يفعل ذلك ، ولكن الله لم يجعل قرآناً بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢/٢٠٦].

وقد تستعـمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «أن» ويكثر ذلك بعـد كلمة «ودَّ»، وكلمة «أحبَّ»، وما يشبههما، كقوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] أى : يود التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يود».

وقد تسـتعمل «لو» للتـمنى، مثل قـوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا .. (١٦٧) ﴾ [البقرة] وهى على لسان بعض أهل النار يوم القيـامة الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليتـبرءوا من الكبـراء الذين كانوا يتـبعـونهم فى الدنيا ثم تنـكَّروا لهم فى الآخرة . [القـاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألاَ تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ..(٢١٣)﴾ [البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج.

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قُوتَهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيمانى منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ(١) فَلا يَضِلُّ(٢) وَلا يَشْقَىٰ(٣) .. (١٢٣)﴾ [طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التى تعالج هذا الأمر، وهى ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ..(١١٨)﴾ [هود]

---

(١) هداه الطريق يهديه هدياً وهداية وهُدَى: اعلمه إياه، وعرّفه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ. ومن المجاز المعنوى: هداه الحقَّ، أو هداه إلى الحق: دلَّهُ عليه وأرشده إليه.

والهُدَى : مصدر الفعل «هدَى»، ويأتى بمعنى الرشاد، ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] أى : هادٍ للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] فالكتاب هُدًى للمتقين، أى : هادٍ لهم. وأما إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ .. (٢)﴾ [البقرة] فيكون هُدًى مصدراً بمعنى هداية، أى: فى الكتاب هداية للمتقين لا ريب فى ذلك. [القاموس القويم: مادة (هدى)] بتصرف.

(٢) ضلَّ الكافر: غاب عن الحجة المقنعة وعدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ..(٥٠)﴾ [سبأ] . [القاموس القويم : مادة (ضلل)].

(٣) شقى شقاً شقاءً وشقاوة : ساءتْ حاله المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. قال تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ..(١٠٦)﴾ [المؤمنون] أى : حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. وقال تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه] أى : لتحزن وتتألم أسفاً على عصيانهم. [القاموس القويم: مادة (شقى)] بتصرف.

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول - سبحانه :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم - عليه السلام - ثم طرأتْ الغفلة[1] ؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (١١٨) ﴾ [هود]

يعنى أنه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .. (١١٨) ﴾ [هود]

أى : أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، يقول الحق: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] وتأتى بمعنى عدم الإدراك للحق ، وعدم الاهتداء إليه يقول الحق: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

وغفل عن الأمر غُفولاً تركه عمداً أو عن غير عمد، وأغفله متعدٍّ بالهمزة: تركه عن عمد . وأغفل غيره عن الأمر : جعله يغفل عنه ، يقول الحق: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصرف وترتيب ص ٥٧ جـ ٢].

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾

أى : أن الحق - سبحانه - قد خَلَقَ الخَلْق للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضميراً» عائداً على كلام متقدِّم، فنحن ننظر ماذا تقدم. والمتقدم هنا : ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ.. (١١٩) ﴾ [هود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

ومعنى العبادة[١] هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية تحكَّمتْ فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدُّد الأهواء.

فلو أن هَوَانَا كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكنّا نختلف نتيجة لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يمينى ؛ وذاك هواه يسارى ؛ وثالث هواه شيوعىٌّ؛ ورابع هواه رأسمالىٌّ؛ وخامس هواه وجودىٌّ، وكل واحد له هوى[٢].

---

(١) عبدالله يعبده عبادة وعُبودة: أطاعه، فهو عابد. قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة]. [القاموس القويم: مادة (عبد)] بتصرف.

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(٢٨) ﴾ [الكهف] .

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم[١] لفسدت السموات والأرض .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرتْ حركته الاختيارية عن هوًى واحد؛ ولذلك قال النبي ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[٢] .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة في كل مناحي الحياة ؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكامل وضرورة ؛ لا ارتباط تفضُّل.

---

(١) هَوِيَهُ يهواه هوًى : أحبَّه. وأكثر ما يستعمل في الباطل وفي الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿فلا تتبعوا الهوى .. (١٣٥)﴾ [النساء] أي : ما تهواه أنفسكم وما تشتهيه فيضلكم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿ولا تتبعوا أهواء قومٍ قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا .. (٧٧)﴾ [المائدة]. [القاموس القويم ٢/ ٣١٠ ، ٣١١].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في: كتاب «السنة» (١/ ١٢) من حديث عبدالله بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعَّفه.

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ [1] لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء [3]، والتى تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم [4]، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرىء ما يُحسنه.

---

(١) الدرجة : المرقاة يرقى عليها الصاعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السُّلَّم، تستعار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والجاه، وفى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ .. (١٦٣)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وفى الثواب كُلٌّ بحسب عمله. قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ .. (١٥)﴾ [غافر] أى: أن الله عنده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله عالٍ متعالٍ فوق أعلى الدرجات عليُّ القَدْر، جَلَّ شأنه. [القاموس القويم: ١/٢٢٥].

(٢) سَخَّرَهُ يُسَخِّرُه : أذلَّه وقهره وأخضعه. قال تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] وسخَّره بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يُريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..(١٦٤)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: ١/٣٠٦]

(٣) الرعونة : الحمق. والأرعن: الأهوج فى منطقه. [لسان العرب. مادة : رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذى يرتدى ملابس رثة[1] ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندى لإصلاح سيارتك ؛ فيلحّ صاحب السيارة الفارهة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك فى أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قُلْ لنفسك : لابد أن هذا الإنسان متفوق فى مجال ما.

ونحن نعلم أن الله -- سبحانه وتعالى -- ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف[2] فى المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولِّد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخِّص الداء ، ويصفَ الدواء الشافى بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وأنت إن دقَّقت النظر فى الاختلاف لوجدته عين الوفاق.

---

(١) الرثّ: القديم البالى من كل شىء. وأرث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف فى المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشىء وضده.

ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابناً يفضّل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الوَرك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف فى ظاهر الأمر، ولكن باطنه وِفَاق ، لو اتفقنا جميعاً فى الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض ؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل : هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول : إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنفكَّة.

ثم يقول - سبحانه - فى نفس الآية : ﴿.. وَتَمَّتْ[1] كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ[2] وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أزلاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلىّ لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال- سبحانه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أى : علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عباده سيختار أن يعمل فى الدنيا عملَ أهل النار، ومن سيختار أن يعمل عملَ أهل الجنة ؛ لسبْق علمه الأزلىّ بمرادات عباده واختياراتهم.

وسبق أن ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذى

---

(١) تَمَّ الامر يتمُّ تمّاً وتماماً: كَمُلَ وتحقق وهو تامٌّ وتميم، ويكون حسياً ومعنوياً. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ..(١١٥)﴾ [الانعام]أي: كَمُلَتْ وتحققت. وتمّ الشيء: كَمُلَتْ اجزاؤه. قال تعالى :﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الاعراف] اى: كَمُلَ العدد المحدد لمناجاة موسى عليه السلام. وأتمَّ الشيء: أكمله على احسن وجه، قال تعالى: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٣)﴾ [المائدة] أى :على أكمل وجه، ليس فيها نقص. [القاموس القويم: ١/١٠١ ، ١٠٢] بتصرف.

(٢) الجِنَّة ـ بكسر الجيم ـ : الجنّ . قال تعالى : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١/١٣٢].

يعلن للأساتذة ضـرورة ترشيح المـتفوقيـن فى كل قسم ؛ لأن هناك جوائز فى انتظارهم، فيـرشح كل أستاذ أسماء المتـفوقين الذين لمسَ فيهم النبـوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميـد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفـاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجأ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قـد تحـدث مفـاجأة : أن يـتخلف واحـد من هؤلاء الطلبـة لمرض أصابه أو طارىء يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختلّ تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزَّه عن الخطأ، وما علِمـه أزلاً فهو مُحقَّق لا مـحالة؛ لذلك بيَّن لنا أنه علْم أزلىّ، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ(1) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد]

وسمعها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان ـ ولو نفاقاً.

وقول الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبيِّن لنا أن الحق - سـبحانه -

(1) تَبَّ يَتُبُّ تبّاً وتبـاباً : خَسِرَ وهلك. قـال تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسـد] دعاء عليه بالخسران أو بالهلاك - ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه؛ لأنهما آلة البطش والإيذاء.
والتباب : الهـلاك . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧ ﴾ [غافر] وتبَّبهُ تـتبيبا: أهلكه. قال تعالى : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ [هود] أى: إهلاك وتخسيـر. [القاموس القويم: ٩٦/١]

إنْ قال شيئاً فهو قد تَمَّ بالفعل ؛ فلا رادَّ لمشيئته ، أما نحن فعلينا أن نسبق كل وعد بعمل سنقوم به بقول: ﴿ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾

[الكهف]

لأن الحق يقول لنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ(١) لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وفي هذا احترامٌ لوضعنا البشرى، وإيمانٌ بغلبة القهر، ومعرفة لحقيقة أننا من الأغيار ؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً ؛ ومفعولاً يقع عليه الفعل ؛ ومكاناً ؛ وزماناً ؛ وسبباً ؛ ولا أحدَ منَّا يملك أيَّ واحد من تلك العناصر.

فإن قُلْتَ: ﴿ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تكون قد عصمتَ نفسك من أن تكون كاذباً، أو أن تَعِدَ بما لا تستطيع، لكن إذا كان مَنْ يقول هو مالك كل شيء، ولا قوة تخرجه عَمَّا قال، فهو وحده القادر على أن ينفِّذ ما يقول.

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله - تعالى - يتجرد عن

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/٧١) عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من قريش سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور وذلك بعد مشورة اليهود: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يقل : «إن شاء الله» ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله له في ذلك وَحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، فنزلت هذه الآية وهذه السورة (الكهف) فيها خبر ما سألوا عنه.

الزمن؛ فلا نقول: «فعل ماض» أو «فعل سيحدث فى المستقبل» أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقَاسُ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ (١) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (٢) .. (١) ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ أَتَىٰ ﴾ بمعنى : تَقرَّر الأمر ولم يُنفَّذ - بعد - فلا تتعجَّلوه؛ وهذا هو تحدِّى القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله - سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا مُنَازِع له سبحانه.

وقوله الحق : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان (٣) المكلَّفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

---

(١) أمر الله : عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. [قاله القرطبى ٥/٣٧٨٩] وقال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٦١): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضى الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١)﴾ [يونس] . [القاموس القويم: ٢/٩].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحِملين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ [الرحمن]. وهو خبر المقصود منه التهديد والوعيد. [القاموس القويم١/١٠٨].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ[1] بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ[2] الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

وساعة ترى التنوين فى قوله الحق ﴿ وكلا ﴾ فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - فى القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا أنْ ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله- تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ[3] .. (٧٠) ﴾ [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل فى أسماء الله الحسنى، فإياك أنْ تشتقّ من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ[4] .. (١٢٠) ﴾ [هود]

والذى يقصُّ هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد فى إمكانه أن

---

(١) ثَبَّتَهُ : جعله ثابتاً مُتمكّناً . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) ﴾ [الإسراء] أى : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف. [القاموس القويم: ١/١٠٥].

(٢) قوله تعالى : ﴿ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ .. (١٢٠) ﴾ [هود] : «أى هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن فى رواية عنه وقتادة: فى هذه الدنيا . والصحيح : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون» قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

(٤) قصَّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً وقصصاً تتبعها ورواها وحكاها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ .. (٢٥) ﴾ [القصص]. وقصَّ الأمر قصاً تتبعه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا .. (٦٤) ﴾ [الكهف] . والقصص مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]. [القاموس القويم بتصرف جـ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصَّاص ، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماكر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾[1] [الأنفال]

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ[2] .. (١٤٢) ﴾ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال ؛ وأن نكتفى بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة[3] ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

---

(١) مَكَرَ يمكر مكراً: دَبَّر الشر لغيره في خفية واحتيال. قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى : ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ..(٢١) ﴾ [يونس] أى: تدبير سيِّىء بقصد صرفها عن وجهها وصدِّ الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون. كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾ [النمل]. [القاموس القويم: ٢/ ٢٣١ ، ٢٣٢].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخْفيه ليوقعه فى مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال] وخادعه: خدعه أو حاول ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء] أى : يُظهرون الإيمان نفاقاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطلٌ خداعهم، وكاشف أمرهم، ومعاقبهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١/ ١٨٨].

(٣) «المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . فالأول : كقوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ..(١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..(٥٤) ﴾ [آل عمران]، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه. ومثال التقديرى قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ .. (١٣٨) ﴾ [البقرة] أى : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، فعبر عن الإيمان بـ « صبغة الله » للمشاكلة بهذه القرينة، الإتقان للسيوطى (٣/ ٢٨٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

و « أنباء » جمع «نبأ» ، وهو الخبر العظيم الذى له أهمية ، والذى يختلف به الحال عند العلم به، وأخبار الرسل ـ عليهم السلام ـ تتناثر لقَطات مختلفة عَبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحةً ما جاء به كل رسول معَالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق - سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا(1) حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ(2) وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوِّراً حال المؤمنين(3) :

---

(١) زلزل الشيء: حرّكه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]. وقوله تعالى : ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب] أى: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً ـ على التشبيه بالشيء المادى. [القاموس القويم: ١/٢٨٨].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شَعْيا فى قول مقاتل ، وهو اليسع. وقال الكلبى: هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحاك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك فى غزوة الأحزاب، فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بنى النضير وبنى قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون مُحاصرين داخل المدينة قريباً من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٣/٤٧٠)].

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ[2] وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا[3] (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيمانى بربٍّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التى تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التى يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه: «القلب»، وهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس – وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشُم، ومن فَمٍ يستطعم، ومن كفٍّ تلمس –

---

(١) زاغ يزيغ زيغاً وزيغاناً : مال عن القصد . وزاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئاً. قال تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] أى: ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠)﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع. [القاموس القويم: ١/ ٢٩٤] بتصرف.

(٢) الحنجرة – فى اللغة – : الحلقوم والحلق . وهى علمياً تسمى القصبة الهوائية ، ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ..(١٠)﴾ [الأحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن أمارة فهو شك راجح، وفعله من أفعال الرجحان – من باب نصر – والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون، وقرىء : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب] الظنونا – بألف فى الوصل، وفى الوقف – وبغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ١/ ٤١٧].

فتتولد المعلومات التى يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتى بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ فى الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» - من العقدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التى انتهى المخ من تمحيصها[1] تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذى يفكر فى مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذى يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التى استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله ؛ وما ينتهى إليه عقله يسقطه فى قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر فى وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة، ولكن من أين جاء هذا اليقين فى أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسى بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته.

لابد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

---

(١) مَحَصَ الشيءَ ومحَّصه : خلَّصه من عيوبه . يقال : محص المعدن بالنار : خلَّصه مما يشوبه . ومحص السيف : جلاه . ومحَّص الله التائب من الذنوب : طهَّره منها . ومحَّص فلاناً : ابتلاه واختبره . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولابد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلِّف قبل أن يُقبِلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتى الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى ـ قبل أن تأتى الموعظة[1] ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجىء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يَعظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعظ به ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فَلْتعظْ نفسك أولاً.

---

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] . ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/٣٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿ كَبُرَ مَقْتاً[١] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ③ ﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذى يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطى الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : « لو كان فى هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه ».

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كمُثَبِّت ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكِّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التى سيعانى منها مَنْ لايأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلَّفين - مثلاً - أن الأمر بغَضِّ الطَّرْف[٢]

---

(١) مَقَتَهُ يمقته مقتاً : أبغضه بغضاً شديداً؛ لأمر قبيح فعله.
ومَقْتُ الله : غضبه وانتقامه وعذابه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ .. ⑩ ﴾ [غافر] أى : أن غضب الله عليكم أكبر من بغض بعضكم بعضاً، وانتقام بعضكم من بعض. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ㉒ ﴾ [النساء] أى: أن زواج من سبق أن تزوجها الأب يعتبر فعلة فاحشة شديدة القبح، وتكون سبباً فى مقت الناس وبغضهم الشديد لمرتكبها، وسبباً فى مقت الله وغضبه وانتقامه من فاعلها؛ لأنها عقوق بالآباء وخلْط للأنساب.[القاموس القويم: ٢/ ٢٢١].

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على العين وعلى البصر. قال تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ .. ㊺ ﴾ [الشورى] أى: من جانب العين فى خفاء. وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ㊽ ﴾ [الصافات] أى: غاضات البصر من العفة، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ㊵ ﴾ [النمل] أى: بصرك، أى مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غور[١] الفهم بأن فى غَضّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى فى الزكاة أنها أَخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن فى الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيمانى التأمين الاجتماعى الذى يحميه وعياله من مَغبَّة السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ[٢] الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

لأنك حين تتدبر المعانى ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلفنى الله إلا لخير نفسى ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

---

(١) سَبَرَهُ سَبْراً : حَزَرَهُ ، أو خَبَرَهُ . يقال: سَبَرَ الجرح: قاس غَوْرَهُ بالمسبار. وسَبَرَ فلاناً: خَبَرَه ليعرف ما عنده. والغَوْر: كل منخفض من الأرض، والغور من كل شيء: قعره وعمقه. يقال: سَبَرَ غوره: تبيَّن حقيقته وسرَّه. ويقال: فلان بعيد الغَوْر: داهية. وماء غَوْر: غائر. وفى التنزيل العزيز: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]. [المعجم الوسيط: مادة (سبر)، (غور)].

(٢) دَبَّر الأمر: نظر فى عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ..(٣) ﴾ [يونس] أى: يقضيه ويقدِّره وينفذه على حسب حكمته وإرادته. وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبَّر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] أى: هل عجزوا وعَمُوا فلا يتأملون معانى القرآن، ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً فسَّرناه هنا بقولنا: أعَجَزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أعجزوا فلم يدبروا، والأصل: يتدبروا، قُلبت التاء دالاً، وأدغمت فى الدال. [القاموس القويم: ١/٢٢١].

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد فى الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاومٍ له.

إذن : فموقف خصوم النبى ﷺ موقف طبيعى لصالحهم، ولكنهم – لحمقهم – حددوا الصالح بمصالحهم الآنية[1] فى الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة نعيماً أو عذاباً[2].

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقوِّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شراً يوجد لهم فى الآخرة.

ولو أنهم فَطِنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شىء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكان

---

(١) المصالح الآنية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال، وهو ظرف للوقت الحاضر معرف بأل دائماً، ومبنى على الفتح. قال تعالى : ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ .. (٧١) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١/٤٥].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكذبين فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد ؛ وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد ؛ أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق - سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل[1]، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها[2]، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذى جئتَ به لن يأتى بعده دين آخر ؛ لذلك لابد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذى سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكِّرك والمؤمنين معك.

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول ﷺ كمثبَّت ؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأنصار حين بايعوه فى العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف] أى: ما كنت مبتدعاً من تلقاء نفسى ما أدعو إليه، إن أتبع إلا ما يُوحى إلىّ.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »[(١)].

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذى يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات.

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه.

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثانى ؛ الطرف المكذِّب للرسول؟

كان ولابد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذِّبين للرسول؛ لأن استدعاء المعانى يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر.

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

---

(١) كان ذلك فى بيعة العقبة الثانية وهى الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصارى: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزْى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. [سيرة النبى لابن هشام ٢/٥٥].